عبد الله أمجد أسامة

٣٧ يوم

بدأ كل شيء في إحدى الغرف في المستشفى. .
دخل الطبيب الغرفة وسط ترقب جميع من فيها.
يتحدث أحد أقرباء المريض: أيها الطبيب لقد مرَّ أسبوعان تقريبًا وحالته لا تتحسن البتة. .
يرد الطبيب: لا تقلق لقد عدلت له جرعة الدواء. . سيتحسن حاله عمَّا قريب.
بعد مرور أسبوع آخر، تطلب زوجة المريض استدعاء الممرضة. . . اقتحمت الممرضه الغرفة.
نظرت بفزع للمريض وبجوارها زوجته تتلعثم في الكلام من فزعها، استدعت الممرضة الطبيب.
دخل الطبيب الغرفه فور استدعائه ولكن قبل أن ينطق بشيء تصنم مكانه حيث رأى كل من في الغرفة يجهش بالبكاء. . حينها أدرك أنَّ المريض قد فارق الحياة. .
لم يستطع حينها أن ينطق بأي كلمة إلا أنه توجه لزوجة الفقيد لا يدري ماذا يقول لها وهي تبكي على جثته إلاّ أنَّه تأثر من المنظر وفرت العبرات من عينيه. .
وقال لها: أنا حقا أعتذر إنها غلطتي.
ترد عليه المرأة وهي تصرخ: ماذا تعني؟ هل ستعيده لي مرة أخرى؟
وقعت تلك الكلمات على الطبيب كوخز إبر في قلبه ولكنَّه لم يجد الرد المناسب فاكتفى بمغادرة الغرفة وتعزيةِ أقارب الفقيد.
وظل يحدث نفسه: ولكني حقا أجهل سبب وفاته هل كان حادثًا عرَضيًا أم

أني أخطأت في تشخيص حالته ولكني كنت متاكدًا من أنه يعاني من إصابة طفيلية عاديّة. بعض المضادات الحيوية والمطهرات كفيلة للقضاء عليها. .
- مرت ستة أشهر منذ تلك الحادثة وما يزال الطبيب يبحث في سر وفاة ذلك المريض حتى جاء ذلك اليوم الذي كان فيه الطبيب في بيته يشاهد الأخبار.
جميع العناوين الرئيسية تخبر بوفاة عشرات المرضى لسبب مجهول. .
تذكر حينها ما حدث معه منذ ستة أشهر وشك أن يكون نفس الشيء قد تكرر مرةً أخرى.
لم يقطع تفكيره العميق إلا صوت نغمة هاتفه المحمول.
التقط هاتفه ليسمع الآتي: حالةٌ طارئةٌ عليك القدوم حالًا. . .
هرع الطبيب سريعًا وهو لا يعلم ما ينتظره هناك.
عندما وصل للمستشفى. . بدأ بمعاينةِ حالة المريض الذي يعاني ارتفاعًا حادًا في الحرارة مع انخفاض ضغطهِ عن المستوى الطبيعي.
طلب منه الطبيب أن يحدثه عما يشعر به فتكلم المريض بوهن: أيها الطبيب إني أختنق. . أشعر أنَّ صدري يضيق وأنَّ معدتي تتقطع من الألم.
الطبيب يوجه تعليماته للممرضين: أحتاج تحليل دم حالًا.
بعد مرور ساعه تظهر نتائج التحليل.
نظر الطبيب للنتائج وارتسمت على وجهه علامات القلق عندما رأى أنَّ المريض يعاني من إصابةٍ طفيلية. . في الحال وقع في ذهنه أن تكون نفس الإصابة التي شهدها منذ أشهر.
أمر الممرضين بحجز المريض في جناح معزول وتقديم خافض للحرارة وبعض المضادات الحيوية والمسكنات. . من ثم أسرع يبحث في أرشيف المستشفى

عن تحاليل المريض الذي توفي سالفًا وطابقها بالتحاليل الحالية. .
صدم عندما رأى تطابق التحاليل وتطابق الأعراض التي حدثت للمريضّين.
ولكنَّه لا يزال يرى أمامه مجرد إصابة طفيلية عادية لا شيء مميز فيها.
ينادي أحد معاونيه: أحضر لي سريعًا عينة دم أخرى من المريض. .
ذهب الممرض لإحضار العينه وعاد بعد بضعة دقائق.
الطبيب يتحدث: أحضر لي المضاد الحيوي الذي أعطيناه للمريض. . .
يعامل الطبيب العينة بالمضاد الحيوي ثم يطلب من المتخصصين عمل تحليل لتلك العينة.
عند تفحصه لنتائج التحاليل وجد أنَّ جميع الطفيليات قد تحللت بتأثير المضاد الحيوي.
تلك النتائج طرحت العديد من علامات الاستفهام في رأس الطبيب. . فإن كان المضاد الحيوي قد قضى على الإصابة الطفيلية في تلك العينة إذن لماذا لا يبرأ المرضى. . ولماذا يموتون بتأثير إصابة طفيلية عادية كتلك. .
ولكن خطر على ذهنه شيءٌ مهم وهو أنَّه من الممكن أن تكون الطفيليات ليست هي السبب المباشر لوفاة المرضى إنما هو شيء آخر يغفل عنه. .
الطبيب يحدث الممرض: توجه إلى المختبر وأخبرهم أني أريد تحليل سموم لعينة الدم تلك. .
نفذ الممرض ما طُلِبَ منه على الفور، في تلك الأحيان ذهب الطبيب ليلقي نظرة على المريض فتوجه لغرفته ليجد أنَّ حدةَ آلام المعدة -على الرغم من عدم اختفائها كليًا- إلا أنها صارت أخف حدةً من ذي قبل وهذا شيء طبيعي لأن الطفيليات بدأت تهلك بتأثير المضادات الحيوية.
لكن مع ذلك لا تزال توجد حلقة مفقودة لا يستطيع الطبيب تحديدها.

على الرغم من فعالية المضادات الحيوية ضد الطفيليات لا تزال حالة المريض دون تحسن ولا تزال حرارته مرتفعة كما كانت.

الطبيب يحدث المريض: لا تقلق ستكون على ما يرام عما قريب. . .

غادر الطبيب الغرفة بعد أن أمر الممرضين المسئولين عن متابعة حالته بعدم تقديم أي أطعمة تحتوي على السكريات له وذلك لأنها مصدر غذاء للطفيليات. .

مر الوقت سريعًا وانقضي اليوم عندما ظهرت نتيجة تحليل السموم الذي طلبه الطبيب سالفًا.

تفحص الطبيب النتائج بتمعن. . حتى الآن يبدو كل شيء طبيعيًا. .

إلى أن تقع عينه على وجود نوع مجهول من السموم يسبح في دم المريض في تلك الأحيان اتسعت عينا الطبيب وأيقن حينها أنَّ تلك الحلقة المفقودة التي حيرته ماثلةٌ أمام عينيه.

فلم تكن الطفيليات هي السبب المباشر لوفاة المرضى إنما هو ذلك السم القاتل. . .

انتفض الطبيب ويتوجه لغرفة المريض.

هرع يحدث الممرضين: أخفضوا جرعة المضاد الحيوي تدريجيًا ثم اقطعوه عنه تمامًا عندما تشير تحاليله لخلوه من الطفيليات تمامًا والأهم من ذلك أريد منكم حقنهِ بمضاد سموم كل اثنتي عشرة ساعة حتى تتحسن حالته. .

مر أسبوعان ولا يزال المريض في معاناته على الرغم من حقنه بمضادات السموم وعلى الرغم من موت جميع الطفيليات بداخله. .

الطبيب لا يدري ماذا يصنع لقد خرج كل شيء عن سيطرته حتى إنَّه أخذ عينات من دم المريض وعاملها بكل ما يعرف من مضادات السموم ولكن لا

جدوى من كل ذلك فما زال السم في الدم غير متأثر بتلك المضادات.
بعد مرور أسبوع آخر يذهب الطبيب ليعاين حالةَ المريض فيصدم عندما يفتح باب الغرفة ويرى خطًا تام الاستقامة على شاشة جهاز رسم القلب والذي يعني أنَّ المريض قد فارق الحياة.
سقط أرضًا جاثيا على ركبتيه وعينيهِ ترتجفان وهو لا يصدق أنَّ كل ما فعله ذهب أدراج الرياح وأن روحًا أخرى قد أفلتت من يده. .
منذ ذلك اليوم استقال الطبيب من عمله في المستشفى ليكرّس جهده ووقته لإيجاد مضاد مناسب لذلك السم الخبيث. . بعد أن جمع عدة عينات لأشخاص مصابين بذلك الوباء. .
في تلك الأحيان كان ذلك الوباء قد تحول لمشكله أمنٍ قوميّ استدعت الحكومة لعقد اجتماع مغلق للبحث في سبل معالجة تلك الأزمة. . .
في وقت لاحق قرر الطبيب وهو في مختبره اختبار تأثير المرض على عينة من الفئران، قام بحقنها ببعض من الدماء المحملة بالمرض. . وظلَّ يراقب سلوكها ويُجري لها التحاليل اللازمة يومًا بيوم ولكنَّه لاحظ بعد مرور أسبوع أنَّ الفئران قد أصيبت بإصابة طفيلية كما حدث مع المرضى ولكنَّ سلوك الفئران كان طبيعيًا وكأنَّها لا تعاني من أي مكروه. .
مرَّ الأسبوع الثاني ولا يزال لا يوجد أي أثر للسموم في دم الفئران ولكنَّ أعراض الإصابة الطفيلية بدأت تظهر على الفئران وبدأ سلوكها يتغير تدريجيًا.
بعد مرور بضعة أيام ظهر السم أخيرًا في دم الفئران.
أسرع الطبيب بأخذ عدة عينات من دم الفئران وفحص بدقةٍ تامة ذلك السم.
حاول وبجهدٍ كبير تجربة عددٍ كبير من مضادات السموم التي قد صممها

خصيصًا لتلائم تركيب السم. .
إلى أن جاء ذلك اليوم.
كعادته يجرب أحد المضادات التي صنعها بعد أن أصابه اليأس والإحباط الشديدين. .
ولكنَّه صُدِمَ عندما رأى أخيرًا أنَّ الفئران تستجيب لذلك المضاد الجديد وأشرق وجهه سعادةً وابتهاجًا عندما رأى أنَّه بعد أسبوع اختفى السم تمامًا من دم الفئران جميعًا وعادت لطبيعتها مرةً أخرى. . .
ابتسم ابتسامة منتصر حملت العديد من المعاني التي تغني عن الكلمات.
فقط ليكون متاكدًا كرر التجربة مرارًا وتكرارًا خاصةً بعدما حلل خصائص ذلك الوباء فاكتشف ما يلي:
يفارق المريض الحياة بعد إصابته بالإصابة الطفيلية بسبعةٍ وثلاثينَ يومًا.
ولكنَّ المشكلة تكمن في أنَّ أعراض الإصابة لا تظهر على المريض إلا بعد مرور أسبوعين من الإصابة الطفيلية مما يعني أنَّه يتبقى له ثلاثةُ أسابيع بعد ظهور الأعراض عليه حينها تكون الطفيليات قد أفرزت ذلك السم الخبيث في دمه فيكونُ الظاهر لنا أنها مجرد إصابة طفيلية عادية يمكن علاجها ببعض المضادات الحيوية. .
بعد إعادة التجربة لمرات ومرات كانت النتائج مذهلة فقد عاشت جميع الفئران دون استثناء. .
بعد مرور أسبوع عرضَ الطبيب ما توصل إليه من نتائج على المختصين بوزارة الصحة.
تم الإعلان أن العقار ستتم تجربته على البشر لأول مرة خلال يومين على أحد المرضى. .

مرَّ اليومان بسرعة شديدة. يذهب الطبيب بعد تجهيز عقاره بشكل كامل لموضع الاختبار ولكنَّ القلق ما زال يراوده فكان يحدث نفسه: مما أنت قلق؟ لقد نجت جميع الفئران. . . أتمنى أن يسير كل شيء على ما يرام. . .
حانت لحظة الحقيقة وكان المريض الذي بلغ ستةً وثلاثينَ يومًا من تاريخ الإصابة يُحَدّثُ الطبيب وهو يدمع: أيها الطبيب هل حقًا سأعيش؟
رد الطبيب: لا تقلق سيسير كل شيء كما خططنا. .
يتم حقن المريض بمضاد السموم الجديد وسط ترقب من جميع الأطباء والعلماء الذين اجتمعوا لأجل لذلك اليوم. . .
تمر أربعةٌ وعشرونَ ساعة والجميع يترقب وتتسارع دقات قلوبهم. .
وبينما هم على تلك الحالة تُسمع صافرة طويلةٌ من جهاز رسم القلب ويظهر الخط المستقيم مرةً أخرى كما كان سالفًا. .
لقد توقف قلب المريض. . . حدث ذلك وسط صمت الجميع. .
من هول الصدمة سقط الطبيب أرضًا وكأنه فقد زمام عقله. .
لم يمرَ الكثير حتى انتشر نبأ فشل العقار الجديد بعد كل الضجة التي صاحبته. .
يستفيق الطبيب ليجد نفسه في زنزانة مغلقة.
يصرخ بأعلى صوته: أين أنا؟ من الذي أحضرني إلى هنا؟
لا يجد من يجيبه. . ولكن تمر بضعة أيام حتى يأتي أحد المسئولين إليه.
يتحدث الطبيب: سيدي من الواضح أني ارتكبت خطأً ما. . أرجوك صدقني. لقد عاشت جميع الفئران أمام ناظريكم.
من المؤكد أن هناك شيئا خاطئا قد حدث.
يجيبه المسئول: أيها الطبيب لقد صدر قرار بنفيك لإحدى الجزر المهجورة

حتى تلقى حتفك فيها وحيدًا. .
ولكني حقا لم أقترف أي ذنب. .
الحياة صعبة أحيانًا سيدي الطبيب.
يقول هذا بينما يرفع قبعته احترامًا للطبيب. . . .
ما هي إلا أيام فعلًا وتم نفي الطبيب لإحدى الجزر النائية الخاوية ليقضي ما تبقى له وحيدًا شريدا. .
يقضي أيامًا وأياما هائمًا على وجهه لا يفعل أي شيء سوى محاولة تأمين بعض الطعام والشراب.
ولكن ما يزال يشغل عقله كل ما مضى من أحداث ويفكر مليًا في سبب عدم نجاح العقار على الرغم من نجاحه مع الفئران. .
وبينما هو منشغل بالتفكير قرر إعادة التجربة ولكن بشكل مختلف.
وجد معه بعض عينات دم مصابة بالوباء وبعضا من عقاره الجديد. .
قام بجمع أربعة فئران وقام بحقنهم جميعًا بالوباء وانتظر أسبوعين حتى تكون السم في دم الفئران ومن ثم حقن اثنين منهم بالعقار وترك البقية دون علاج. .
تبقت ثلاثة أسابيع على لحظة الحقيقة. . .
ولكن بعد مرور يوم واحد يحدث شيءٌ لم يكن في الحسبان يقلب الموازين رأسًا على عقب.
فعندما استيقظ الطبيب من نومه أحسَّ بارتفاع في درجة الحرارة مع آلام حادة في معدته. كاد يغفل عما حدث ولكنه سرعان ما أدرك وضعه.
نعم هو الآخر تبقت له ثلاثة أسابيع في تلك الحياة. . . .
قد أدرك أنَّه أُصيب بالوباء قبل أن يحقن الفئران بيوم واحد. . . حاول بيأس

حقن نفسه بما تبقى معه من العقار. . .
ولكن لا جدوى من كل ما يفعل فحالته لا تتحسن البتة. . .
تنقضي الثلاثة أسابيع الخاصة بالفئران وسط استسلام تام من الطبيب الذي يعلم أنه على بُعدِ ساعات من نهايته. .
يذهب بيأس ليعاين الفئران الأربعة لعله يجد من أحدهم أنيسًا له عندما يفارق الحياة غدًا. .
يمشي في ضعف وفتور ولكن عندما يصل إلى الفئران يُذهلُ مما يرى ويتصنم في مكانه حيث أنه لم يتوقع تلك المفاجئة. . .
لقد عاشت الفئران الأربعة. من حقن منهم بالعلاج ومن لم يحقن على حد سواء. .
جلس يتأمل فيهم لساعات وهو مصدوم مما يرى ولكنَّ الخيوط المتشابكة في ذهنه بدأت تنحل وتتضح. . .
فقد أدرك أنَّ سبب نجاة الفئران أول الأمر لم يكن بفضل عقاره الجديد إنما كان بتأثير الجهاز المناعي الطبيعي للفئران. . . .
أدرك أخيرًا أنَّه توصل لحل نهائي لذلك الوباء وهو إيجاد الأجسام المناعية الموجودة في دم الفئران والتي تعاملت غريزيًا مع ذلك السم. ومن ثم حقن البشر بتلك المضادات أو ما يشابه تركيبها. .
ولكنه يتذكر أنَّ ذلك لن يقدم أو يؤخر شيئا فهو على بُعدِ ساعات من توديع تلك الحياة. . ولا يوجد أحدٌ معه على ظهر تلك الجزيرة. . .
يحدث نفسه وهو يبكي: ليتني أكون فأرًا ليوم واحد. .
يلتقط بعض أوراق الشجر ويصنع جرحًا عميقًا في كتفه باستعمال آلة حادة حتى يتسنى له استخدام دمه كما الحبر. .

يخط ما توصل له بالتفصيل على أوراق الشجر والدم يسيل من كتفه. ومن ثم يضعه في زجاجة ويلقي بها في المحيط أملًا منه أن تصل لأحد الشواطيء ويجدها أحدهم ليضع حدًا لذلك الوباء اللعين. . .

تمر الساعات وكأنها تسابق الرياح. . وتصعد روح الطبيب إلى السماء وحيدًا على تلك الجزيرة المهجورة راجيًا أن تصل أوراقه التي دفع ثمنها غاليًا إلى الشخص المناسب. . .

يسكن مكانه ولا تفارقه الابتسامة يتلقى مصيره بكل سرور ورضى بجوار النخيل وحبيبات الثرى الناعمة.

- تمت بحمد الله -

****